الباب الثانى
عذاب الدنيا بعد الطوفان

هلك الكافرون الذين كذبوا بنوح عليه السلام ، وقضى الله عليهم بالطوفان ، وبقى الموحدون فى السفينة إذ نجاهم الله لإيمانهم بما جاء به نوح ، وهبطت السفينة على الأرض ، وانتشر الموحدون فى أرجاء الدنيا يزرعون ويحصدون ، وأعطاهم الله بسطة فى الجسم والنماء والقوة ، وبنوا القصور والخيام وعمروا الأرض شرقاً وغرباً .

ولكن الشيطان لعب برؤوسهم ولم يشكروا نعم الله التى لا تحصى عليهم ، فتركوا عبادة الله الواحد القهار وعكفوا على عبادة الأحجار والأوثان ، فأرسل الله عليهم الرسل لينصحوهم ويرشدوهم إلى الطريق المستقيم ولكنهم استهزؤوا برسل الله فأرسل الله إليهم صنوف العذاب ليعتبروا ويعتبر من جاء من بعدهم .

ولهذا وفقنى ربى أن أقسم هذا الباب إلى فصول أربعة هى كالآتى:

الفصل الأول: عذاب الدنيا لقوم عاد .

الفصل الثانى: عذاب الدنيا لقوم ثمود .

الفصل الثالث: عذاب الدنيا لإبراهيم الخليل وولده إسماعيل .

الفصل الرابع: عذاب الدنيا لقوم لوط .

* * *

obeikandl.com

الفصل الأول
عذاب قوم عاد

يقول الله تعالى:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٥] .

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٦] .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٧] .

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٨] .

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٩] .

نبيهم هود:

هود نبى الله: هو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام .

ويقال: إن هودا: هو عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح .

ويقال: هود بن عبد الله بن رباح الجارود بن عاد بن عوص بن أرم بن سام بن نوح . ذكره ابن جرير .

وكان من قبيلة يقال لها: عاد بن عوص بن سام بن نوح ، وكانوا عربا يسكنون الأحقاف - وهى جبال الرمل - وكانت باليمن بين عمان وحضرموت ، بأرض مطلة على البحر يقال لها: الشحر ، واسم واديهم (وادى مغيث) .

وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخمة كما وصفهم الله تعالى فى سورة الفجر:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر: ٦ - ٨] .

العرب العاربة:

هم العرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام، وهم قبائل كثيرة منهم: عاد، وثمود، وجرهم، وطسم، وجديس، وأميم، ومدين، وعملاق، وجاسم، وقحطان، وبنو يقطن.

أما العرب المستعربة:

فهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم، وهو أول من تكلم بالعربية الفصحى، وكان قد أخذ كلام العرب من قبيلة جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم، عندما نبع له ماء زمزم.

وقبيلة عاد الأولى كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة: صمدا، وصمودا، وهرا، وكانوا خلفاء من بعد قوم نوح عليه السلام وزادهم الله فى الخلق بسطة وشدة فى زمانهم.

فعن ابن أبى حاتم، عن المقداد، عن النبى ﷺ أنه ذكر إرم ذات العماد فقال: «**كان الرجل منهم يأتى على الصخرة فيحملها على الحى فيهلكهم**».

دعوة هود لهم

والمقصود: أن عادا كانوا جفاة كافرين، عتاة متمردين فى عبادة الأصنام، فأرسل الله فيهم رجلا منهم، يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه، فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم فى طاعته واستغفاره، ووعدهم على ذلك خيرى الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك فقال:

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ [هود: ٥١].

وقال بعضهم لبعض كما جاء فى سورة المؤمنون:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣٤] .

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣٥] .

﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٣٦] .

العـذاب:

قال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار:

فلما أبوا إلا الكفر بالله عز وجل، أمسك عنهم القطر - المطر - ثلاث سنين، حتى جهدهم ذلك، قال: وكان الناس إذا جهدهم أمر فى ذلك الزمان، فطلبوا منه الفرج سبحانه وتعالى، إنما يطلبونه بحرمة ومكان بيته، وكان معروفا عند أهل ذلك الزمان، وبه العماليق مقيمون وهم من سلالة (عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح) وكان سيدهم إذ ذاك، رجلا يقال له: معاوية بن بكر، وكانت أمه من قوم عاد واسمها: جلهذة ابنة الخيبرى، قال: فبعث عاد وفدا من سبعين رجلا ليستسقوا لهم عند الحرم، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة فنزلوا عليه، فأقاموا عنده شهرا، يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان (قينتان لمعاوية) وكانوا قد وصلوا إليه فى شهر.

فلما طال مقامهم عنده، وأخذته شفقة على قومه، واستحيا منهم، أن يأمرهم بالانصراف، عمل شعراً يعرض لهم فيه بالانصراف، وأمر القينتين أن تغنيهم به فقال:

ألا يا قيل ويحك قم فهبنهم ::: لعل الله يصحبنا غماما
فيسقى أرض عاد إن عادا ::: قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو ::: به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ::: فقد أمست نساؤهم أيامى
وأن الوحش يأتيهم جهارا ::: ولا يخشى لعاد سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم ::: نهاركم وليلكم تماما
فقبح من وفد قوم ::: ولا لقوا التحية والسلاما

قال: فعند ذلك تنبه القوم لما جاؤوا له، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم فدعا داعيهم وهو: قيل بن عنز، فأنشأ الله سحابات ثلاث: بيضاء وحمراء وسوداء، ثم ناداه مناد

من السماء: اختر لنفسك - أو لقومك - من هذا السحاب ، فقال: اخترت السحابة السوداء ، فإنها أكثر السحاب ماء ، فناداه مناد: اخترت رمادا رمددا ، لا تبقى من عاد أحدا ، لا والدا يترك ولا ولدا ، إلا جعلته همدا إلا بنى اللوذية الهمدا .

قال: وهم بطن من عاد ، كانوا مقيمين بمكة ، فلم يصبهم ما أصاب قومهم .

قال: ومن بقى من أنسابهم وأعقابهم هم عاد الآخرة .

وساق الله السحابة السوداء التى اختارها قيل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد حتى تخرج عليهم من واد يقال له: المغيث ، فلما رأوها استبشروا وقالوا: هذا عارض ممطرنا .

فكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح فيما يذكرون امرأة من عاد ، يقال لها: مهد ، فلما تبينت ما فيها ، صاحت ثم صعقت فلما أفاقت ، قالوا: ما رأيت يا مهد ، قالت: رأيت ريحا فيها شبه النار ، أمامها رجال يقودونها ، فسخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما - أى دائمة - فلم تدع من عاد أحدا إلا هلك .

وقيل: إن هذه الأيام النحسات كان أولها يوم الأربعاء ، وكانت الريح تجىء إلى أحدهم فتحمله فتدفعه فى الهواء ثم تنكسه على أم رأسه ، فتشدخه جثة بلا رأس: ﴿ فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧ - ٨] .

واعتزل هود عليه السلام فى حظيرة هو ومن معه من المؤمنين ، ما يصيبهم إلا ما تلين عليه الجلود ، وتلذ الأنفس ، وإنها لتمر على عاد بالظعن فيما بين السماوات والأرض ، وتدفعهم بالحجارة .

وقال ابن أبى حاتم ، عن مجاهد ، عن ابن عمر (رضى الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ : «**ما فتح الله على عاد من الريح التى أهلكوا بها إلا مثل موضع الخاتم ، فمرت بأهل البادية فحملتهم ومواشيهم وأموالهم بين السماء والأرض ، فلما رأى ذلك أهل الحاضرة من عاد الريح وما فيها قالوا: هذا عارض ممطرنا ، فألقت أهل البادية ومواشيهم على أهل الحاضرة**» .

وروى مسلم فى صحيحه ، عن ابن وهب قال: سمعت ابن جريج عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح ، قال: «**اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به**» .

قالت: وإذا غيبت السماء تغير لونه ، وخرج ودخل ، وأقبل وأدبر ، فإذا أمطرت سرى عنه ، فعرفت ذلك عائشة ، فسألته فقال: «**لعله يا عائشة كما قال قوم عاد: قالوا: هذا عارض ممطرنا**» ، رواه الترمذى والنسائى .

قبر هود

روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب أنه ذكر صفة قبر هود عليه السلام فى بلاد اليمن وذكر آخرون أنه بدمشق ، وبجامعها مكان فى حائطه القبلى يزعمون أنه قبر هود عليه السلام .

* * *

openkandl.com

الفصل الثانى
قوم ثمود ونبيهم صالح

يقول الله تعالى:

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٣] .

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٤] .

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٥] .

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٦] .

ونبى الله صالح: هو صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن جادر بن ثمود بن عاثر بن إرم بن نوح ، وكان من قبيلة يقال لهم: ثمود ، باسم جدهم ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح .

وكانوا يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك ، وكانوا بعد قوم عاد ، وكانوا أيضا يعبدون الأصنام ، فأرسل الله إليهم صالحا ، يدعوهم إلى عبادة الله وترك عبادة الأصنام ، وبين لهم أن الله أباح لكم هذه الأرض تبنون فى سهولها القصور وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين أى حاذقين فى صناعتها وإتقانها وإحكامها .

وجعلكم عمارا للأرض بزرعها وثمارها وخيراتها ، قالوا: يا صالح ، لقد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، أى كنا نرجوا أن يكون عقلك كاملا ، قبل هذه المقالة وهى دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة ، وترك ما كنا نعبده من الأنداد ، وهو دين الآباء والأجداد .

إنما أنت من المسحرين: أى مسحور لا تدرى ما تقول فى دعائك ، وما أنت

إلا بشر مثلنا .

قال لهم صالح: ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٥ ، ١٥٦] .

الناقـــة

ذكر المفسرون: أن ثمودا اجتمعوا يوما فى ناديهم فجاءهم رسول الله صالح ، ودعاهم إلى الله ، وذكرهم وحذرهم ووعظهم ، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة وأشاروا إلى صخرة هناك ناقة وذكروا أوصافا سموها ونعتوها وتعنتوا فيها وأن تكون عشراء طويلة ، فقال النبى صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم ، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أرسلت به ، قالوا: نعم ، فأخذ عهودهم ومواثيقهم على ذلك .

ثم قام إلى مصلاه ، فصلى لله عز وجل ما قدر له ، ثم دعا ربه تعالى أن يجيبهم إلى ما طلبوا ، فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب الذى طلبوه ، والصفات التى وصفوها ، فلما عاينوها كذلك رأوا أمرا عظيما ، ومنظرا هائلا ، وقوة باهرة ، ودليلا قاطعا ، وبرهانا ساطعا ، فآمن كثير منهم واستمر أكثرهم على كفرهم وعنادهم .

وكان رئيس الذين آمنوا (جندع بن عمرو بن محلاة بن لبيد بن جواس) وكان من رؤسائهم وهم بقية الأشراف بالإسلام .

فصدهم ذؤاب بن عمرو بين لبيد صاحب أوثانهم ورباب بن صعر بن جلمس ودعا جندع ابن عمه شهاب بن خليفة ، وكان من أشرافهم بالإسلام ، فنهاه أولئك ، فمال إليهم ، فقال فى ذلك رجل من المسلمين يقال له: مهرش بن غنمة بن الذميل رحمه الله قال:

وكانت عصبة من آل عمرو ::: إلى دين النبى دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعا ::: فهم بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالح فينا عزيزا ::: وما عدلوا بصاحبهم ذؤابا

ولكـــن الغـــواة مـــن آل حجـــر ::: تولـــوا بعـــد رشـــدهم ذبابـــا

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٦٤] ، أى أضافها لله سبحانه إضافة تشريف وتعظيم ﴿لَكُمْ ءَايَةً﴾ [هود: ٦٤] ، أى: دليلا على صدق ما جئتكم به ، فتركوها ترعى حيث شاءت من أرضهم وترد الماء يوما بعد يوم ، وكانت إذا وردت الماء تشرب ماء البئر يومها ، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء فى يومهم لغدهم ، ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم فلما طال عليهم هذا الحال اجتمع علماؤهم واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة ، ويتوفر عليهم ماؤهم وزين لهم الشيطان أعمالهم .

عقر الناقة

وكان الذى يتولى قتل الناقة رئيسهم (قدار بن سالف بن جندع) وكان أحمر أزرق أصهب وكان يقال عنه: أنه ولد زانية ، ولد على فراش سالف وهو ابن رجل يقال له: صيبان .

وذكر ابن جرير وغيره من علماء المفسرين: أن امرأتين من ثمود اسم إحداهما: (صدوق ابنة المحيا بن زهير بن المختار) وكانت ذات حسب ومال ، وكانت تحت رجل من أسلم ففارقته ، فدعت ابن عم لها يقال له: (مصرع بن مهرج بن المحيا) وعرضت عليه نفسها ، إن هو عقر الناقة .

أما المرأة الأخرى فهى: (عنيزة بنت غنيم بن مجلز) وكانت تكنى باسم: أم غنمة وكانت عجوزا كافرة لها بنات من زوجها ذؤاب بن عمرو ، أحد الرؤساء ، فعرضت بناتها الأربع على قدار بن سالف إن هو عقر الناقة فله أى بناتها شاء .

فانتدب هذان الشابان (مصرع بن مهرج وقدار بن سالف) لعقر الناقة وسعوا فى قومهم بذلك ، فاستجاب لهم سبعة آخرون فصاروا تسعة وهم:

(رعمى ، ورعيم ، وهرم ، وهريم ، وداب ، وصواب ، ورياب) ومعهم: مصرع وقدار ، وقد ذكرهم الله تعالى فى سورة النمل ، إذ يقول عز وجل:

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨] .

فانطلقوا يرصدون الناقة ، فلما صدرت من وردها ، كمن له (مصرع) فرماها بسهم فانتظم عظم ساقها ، وجاءت النساء يذمرن ويشجعن القبيلة فى قتلها وحسرن عن وجوههن ترغيبا لهم فى ذلك ، فأسرعهم قدار بن سالف فشد عليها بالسيف فكشف عن عرقوبها فخرت ساقطة على الأرض ، ورغت رغاة واحدة عظيمة تحذر ولدها ، ثم طَعَنَها سالف فى لبتها فنحرها ، وانطلق فصيلها (ولدها) فصعد جبلا منيعا ، ورغا ثلاثا .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عمن سمع الحسن أنه قال: أى قال الفصيل: يا رب أين أمى ؟ ثم دخل فى صخرة ، فغاب فيها ، ويقال: إنهم اتبعوه فعقروه أيضا .

العـــذاب:

وقال محمد بن إسحاق: قال هؤلاء التسعة بعدما عقروا الناقة: هلم فلنقتل صالحا ، فإن كان صادقا عجلناه قبلنا ، وإن كان كاذبا كنا قد ألحقناه بناقته ، فأتوا ليلا ليبيتوه فى أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة ، فلما أبطؤوا على أصحابهم أتوا منزل صالح فوجدوهم وهم منشدخين ، قد رضخوا بالحجارة .

فقالوا لصالح: أنت قتلتهم ، ثم هموا به ، فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم: والله لا تقتلونه أبدا ، وقد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فإن كان صادقا فلا تزيدوا ربكم غضبا عليكم ، وإن كان كاذبا فأنتم من وراء ما تريدون ، فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك .

فقال لهم: تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب .

يوم الخميس:

ثم أصبحت ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ، فأصبحت وجوههم مصفرة كما أنذرهم صالح عليه السلام ، فلما أمسوا نادوا بأجمعهم ألا قد مضى يوم من الأجل .

يوم الجمعة:

ثم أصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل وهو يوم الجمعة فأصبحت وجوههم

محمرة فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل .

يوم السبت:

ثم أصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع وهو يوم السبت فأصبحت وجوههم مسودة ، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى الأجل .

يوم الأحد:

فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة ، لا يدرون كيف يفعل بهم ولا من أى جهة يأتيهم العذاب .

فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم ، ورجفة من أسفل منهم ، ففاضت الأرواح ، وزهقت النفوس وسكنت الحركات ، وخشعت الأصوات ، وحقت الحقائق ، فأصبحوا فى دارهم جاثمين ، جثثا لا أرواح فيها ولا حراك بها .

قالوا: ولم يبق منهم أحد إلا جارية كانت مقعدة واسمها (كلبة بنت السلق) ويقال لها: الذريعة ، وكانت شديدة الكفر والعداوة لصالح عليه السلام ، فلما رأت العذاب ، أطلقت رجلاها فقامت تسعى كأسرع شىء فأتت حيًّا من العرب ، فأخبرتهم بما رأت وما حل بقومها واستسقتهم ماء ، فلما شربت ماتت .

أبو رغال

قال الإمام أحمد ، عن جابر قال: لما مر رسول الله ﷺ بالحجر قال: «**لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ، فكانت – يعنى الناقة – ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها ، وكانت تشرب ماءهم يوما ، ويشربون لبنها يوما ، فعقروها فأخذتهم صيحة ، أهمد الله بها من تحت أديم السماء منهم إلا رجلا واحدا ، كان فى حرم الله**» ، فقالوا: من هو يا رسول الله ، قال: «**هو أبو رغال ، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه**» .

وقد قال عبد الرزاق: قال معمر: أخبرنى إسماعيل بن أمية: أن النبى ﷺ مر بقبر أبى رغال ، فقال: «**أتدرون من هذا**» ، قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال: «**هذا قبر أبى رغال ، رجل**

مـن ثمود كان فى حرم الله فمنعه حرم الله عذاب الله ، فلما خرج ، أصابه ما أصاب قومه ، فـدفن هاهـنا ، ودفـن معه غصن من ذهب» ، فنزل القوم فابتدره بأسيافهم فبحثوا عنه فاستخرجوا الغصن .

وبعد هلاك ثمود قال صالح: ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩] ، وهذا إخبار عن صالح عليه السلام: أنه خاطب قومه بعد هلاكهم وقال: لم تكن سجاياكم تقبل الحق ولا تريده ، فلهذا صرتم إلى ما أنتم فيه من العذاب الأليم المستمر بكم ، وليس لى فيكم حيلة .

والذى وجب علىّ من أداء الرسالة والنصح لكم ، وقد فعلته وبذلته لكم ولكن الله يفعل ما يريد .

قليب بدر

وهكذا خطاب النبى ﷺ أهل قليب بدر ، بعد ثلاث ليال ، وقف عليهم ، وقد ركب راحلته ، وأمر بالرحيل من آخر الليل فقال: «**يا أهل القليب: هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقـا ، فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقا**» ، وقال لهم فيما قال: «**بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم: كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس ، وقاتلمونى ونصرنى الناس ، فبـئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم**» ، فقال له عمر: يا رسول الله: تخاطب أقواما قد جيفوا ، فقال: «**والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يجيبون**» .

نهاية صالح

ويقال: إن صالحا عليه السلام انتقل إلى حرم الله فأقام به حتى مات .

قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ، حدثنا زمعة بن صالح ، عن سلمة بن وهرام ، عن عكرمة عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: لما مر النبى ﷺ بوادى عسفان حين حج قال: «**يـا أبـا بكر ، أى واد هذا**» ، قال: وادى عسفان ، قال: «**لقد مر به هود وصالح عليهما السلام على بكرات خطمها الليف ، أزرهم العباء ، وأرديتهم النمار ، يلبون – يحجون البيت العتيق**» .

مرور النبي ﷺ بوادي الحجر

قال الإمام أحمد، عن ابن عمر (رضى الله عنهما) قال: لما نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منها ونصبوا القدور، فأمرهم رسول الله ﷺ فأهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل، ثم ارتحل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا فقال: «**إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم**».

* * *

obeikandl.com

الفصل الثالث
إبراهيم الخليل عليه السلام

يقول الله تعالى:

﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم: ٤١ - ٤٨].

نسبه

هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راغو بن فالغ بن عابر بن شالح بن أرفشخذ بن سام بن نوح عليه السلام.

وأمه أميلة، وكان إبراهيم يكنى (أبا الضيفان)، وأبوه تارخ، ولما بلغ عمره ٧٥ سنة ولد له إبراهيم وناحور وهاران، وولد لهاران لوط.

وولد إبراهيم عليه السلام على أصح الأقوال فى بابل وكانت زوجته سارة عاقراً لا تلد.

دعوة إبراهيم لقومه

روى الحافظ ابن عساكر، من طريق هشام بن عمار، عن الوليد، عن سعيد بن عبد العزيز، عن مكحول، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: ولد إبراهيم بغوطة دمشق فى قرية يقال لها: برزة فى جبل يقال له: قاسيون، والصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلى فيه، إذ جاء معينا للوط عليه السلام.

قالوا: فتزوج إبراهيم (سارة) وتزوج ناحور (ملكا) ابنة أخيه هاران.

وانطلق تارخ بابنه إبراهيم وامرأته سارة ، وابن أخيه لوط بن هاران ، فخرج بهم من أرض الكلدانيين إلى أرض الكنعانيين ، فنزلوا حران ، فمات فيها تارخ وله مائتان وخمسون سنة ، وهذا يدل على أنه لم يولد بحران ، وإنما مولده بأرض الكلدانيين وهى أرض بابل وما والاها ، ثم ارتحلوا إلى أرض الكنعانيين وهى بلاد بيت المقدس ، فأقاموا بحران وهى أرض الكلدانيين فى ذلك الزمان ، وكذلك أرض الجزيرة والشام أيضا .

وكانوا يعبدون الكواكب السبعة بأنواع من الفعال والمقال ، ولهذا كان على كل باب من أبواب دمشق السبعة القديمة هيكل لكوكب منها ، ويعملون لها أعيادا وقرابين ، وقال إبراهيم: قول الحق تبارك وتعالى:

﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٦ - ١٧] .

ودعا إبراهيم قومه وأباه ودارت المحاورة والمجادلة وبين لقومه أن الأصنام التى يعبدونها لا تملك رزقا ولا نفعا ولا ضرا ، إنما الرزق من عند الله وحده ، ولكنهم لم يستمعوا إليه ، بل هددوه وتودعوه بالرجم والطرد ، وقال أبوه:

﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾ [مريم: ٤٦] .

فرد إبراهيم على أبيه قائلا: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ ﴾ [مريم: ٤٧] [مريم] .

لقاء إبراهيم بأبيه يوم القيامة

ويخبرنا رسول الله ﷺ فى رواية البخارى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصنى ، فيقول له أبوه: فاليوم لا أعصيك ، فيقول إبراهيم: يا رب إنك وعدتنى ألاّ تخزنى يوم يبعثون فأى خزى أخزى من أبى الأبعد ، فيقول الله: إنى حرمت الجنة على الكافرين ، ثم يقال: يا إبراهيم ، ما تحت رجليك فينظر ، فإذا هو بذبح متلطخ ،**

فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار» .

يقول الله فى سورة الأنعام: ﴿ ۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٤] ، وهذا يدل على أن أبا إبراهيم اسمه آزر ، ولكن قالوا: ربما يكون آزر اسم الصنم الذى عبده أبوه ، فنسب وكنى بهذا الاسم ، والله أعلم .

عدم صلاحية الكواكب للعبادة

يقول الله تعالى فى سورة الأنعام:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٥ - ٧٩] .

وهكذا بين إبراهيم أولا عدم صلاحية الكواكب للعبادة الزهرة ، القمر ، الشمس وهذه الموعظة لأهل حران .

أما أهل بابل فكانوا يعبدون الأصنام ، فحقرها وصغرها وتنقصها وقال لهم:

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٧٢ - ٧٣] .

فنهاهم عن عبادتها ، ودعاهم إلى عبادة رب السماوات والأرض ، فهو المستحق للعبادة فلم يسمعوا كلامه فقال:

﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٥٧] .

تحطيم الأصنام

فلما خرج قومه إلى عيد لهم ، استقر هو فى البلد ، وذهب مسرعاً مستخفيا إلى الأصنام ، فوجدها فى بهو عظيم ، وقد وضعوا أمامها أنواعا من الأطعمة قربانا إليها فقال على سبيل التهكم والازدراء ، كما جاء فى القرآن الكريم بسورة الصافات ، يقول الله تعالى:

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الصافات: ٨٨ - ٩٣] .

وكسر إبراهيم الأصنام وجعلها حطاما إلا كبيرا لهم ، ووضع القدوم فى يد هذا الصنم الكبير ، فلما رجعوا من عيدهم ، ووجدوا الأصنام محطمة ، قالوا: من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا: سمعنا فتى يذكرهم يقال له: إبراهيم ، فجمعوا الناس ليشهدوا مقالة إبراهيم واعترافه ، فيقررون الاقتصاص منه ، ودار الحوار الآتى:

﴿ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٢ - ٦٥] .

فرد عليهم إبراهيم قائلا:

﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٦ - ٦٨] .

النيـــران

ولما فشلوا فى الجدال والحوار مع إبراهيم عليه السلام ، استعملوا سلطانهم وقوتهم ، فاقترحوا إحراقه بالنيران ، وشرعوا يجمعون حطبا من جميع الأماكن ومكثوا مدة يجمعون له ، حتى أن المرأة منهم إذا مرضت تنذر: لئن عوفيت لتحملن حطبا لحرق إبراهيم .

ثم عمدوا إلى حوية عظيمة ، فوضعوا فيها ذلك الحطب ، وأشعلوا فيه النار ، فاضطرمت وتأججت وعلا لها شرار ، لم ير قط قبله ، ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام فى كفة منجنيق ، صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له: هيزن ، وكان هذا الرجل أول من صنع المجانيق ، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة .

ثم أخذوا يقيدونه ويكتفونه وهو يقول: (لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين ، لك الحمد ، ولك الملك ، لا شريك لك) .

فلما وضعوا إبراهيم فى كفة المنجنيق قال: حسبنا الله ونعم الوكيل .

ولذلك روى البخارى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) أنه قال: حسبنا الله ونعم الوكيل ، قالها إبراهيم حين ألقى فى النار ، وقالها محمد ﷺ حين قيل له:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٥] .

وقال أبو يعلى ، عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن الرسول ﷺ قال: «**لما ألقى إبراهيم فى النار ، قال: اللهم إنك فى السماء واحد ، وأنا فى الأرض واحد أعبدك**» .

وذهب بعض السلف فى قوله فذكر أن جبريل عليه السلام عرض لإبراهيم فى الهواء ، فقال: يا إبراهيم: ألك حاجة ، فقال: أما إليك فلا .

ويروى عن ابن عباس (رضى الله عنهما) وسعيد بن جبير أنه قال: (جعل ملك المطر يقول: متى أومر فأرسل المطر ، فكان أمر الله أسرع) .

﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٩] .

وقال الضحاك: يروى أن جبريل عليه السلام كان معه يمسح العرق من وجهه ولم يصبه من النار شىء غيره .

وقال السدى: كان مع إبراهيم أيضا ملك الظل وصار إبراهيم عليه السلام فى ميل الحوية ، حوله نار ، وهو فى روضة خضراء ، والناس ينظرون إليه لا يقدرون على الوصول ، ولا هو يخرج إليهم .

ويروى أبو هريرة (رضى الله عنه) أنه قال: (أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم: إذ قال لما رأى ولده على تلك الحال ، قال: نعم الرب ربك يا إبراهيم) .

ويروى ابن عساكر ، عن عكرمة: أن أم إبراهيم نظرت إلى ابنها عليه السلام فنادته: يا بنى: إنى أريد أن أجىء إليك ، فادع الله أن ينجينى من حر النار حولك ، فقال: نعم ،

فأقبلت إليه لا يمسها شىء من حر النار ، فلما وصلت إليه اعتنقته وقبلته ، ثم عادت .

وعن المنهال بن عمرو بن العاص (رضى الله عنهما) أنه قال: (أخبرت أن إبراهيم مكث فى النار أربعين أو خمسين يوما ، وأنه قال: ما كنت أياما ولياليَ أطيب عيشا إذ كنت فيها ، ووددت أن أعيش وحياتى مثل إذ كنت فيها) .

﴿ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧٠] .

وقال البخارى: أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ وقال: كان ينفخ على إبراهيم .

وقال الإمام أحمد: أن سمامة مولاة الفاكه بين المغيرة قالت: دخلت على عائشة فرأيت فى بيتها رمحا موضوعا ، فقلت: يا أم المؤمنين: ما تصنعين بهذا الرمح ، قالت: هذا لهذه الأوزاغ نقتلهن به ؛ لأن الرسول ﷺ حدثنا: «**إن إبراهيم حين ألقى فى النار ، لم يكن فى الأرض دابة إلا تطفئ عنه النار غير الوزغ كان ينفخ عليه ، فأمرنا رسول الله ﷺ بقتله**» .

مناظرة إبراهيم والنمرود

يقول الله تعالى فى سورة البقرة:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

قال المفسرون: إن هذا الملك هو ملك بابل واسمه: النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ، وكان أحد ملوك الدنيا ، فإنه فى ذلك الزمان كان ملوك الدنيا أربعة: مؤمنين ، وكافرين .

الملكان المؤمنان هما: ذو القرنين ، وسليمان .

وأما الملكان الكافران هما: النمرود ، وبختنصر .

وذكروا: أن النمرود استمر فى ملكه أربعمائة سنة ، وكان طاغيا باغيا متجبرا عاتيا ، قد آثر الحياة الدنيا ، ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، حمله الجهل

على إنكار الصانع ، فحاج إبراهيم فى ذلك ، وادعى لنفسه الربوبية ، فلما قال إبراهيم: ﴿ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فرد عليه إبراهيم: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨] .

يوم الميرة

ولقد روى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن زيد بن أسلم: (أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يفدون إليه للميرة ، فوفد إبراهيم فى جملة من وفد للميرة ، ولم يكن إبراهيم اجتمع بالنمرود إلا يومئذ ، فكانت بينهما هذه المناظرة ، ولم يعط إبراهيم من الطعام ، كما أعطى الناس ، بل خرج وليس معه شىء من الطعام فلما قرب إبراهيم أهله عمد إلى كثيب من التراب ، فملأ منه عدليه ، وقال: أشغل أهلى إذا قدمت عليهم ، فلما قدم ، وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام ، فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا ، فعملت منه طعاما فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه ، فقال: أنى لكم هذا ؟ قالت: من الذى جئت به ، فعرف أنه رزق رزقهموه الله عز وجل .

نهاية النمرود

قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالإيمان بالله ، فأبى عليه ، ثم دعاه فى المرة الثانية أن يؤمن بالله الذى قهر كل شىء ، ودان له كل شىء ، فإن كنت كما تزعم والكل يعلم أنك لا تقدر على شىء من هذا ، بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة ، فأبى النمرود عليه .

ثم دعاه الملك فى المرة الثالثة ، وأمره بالإيمان بالله الواحد ، فأبى عليه .

وقال النمرود: اجمع جموعك ، وأجمع جموعى .

فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليه ذبابا من البعوض ، بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم ، وتركتهم عظاما بالية ودخلت بعوضة واحدة منها فى منخر الملك النمرود ، فمكثت فى منخره أربعمائة سنة ، عذبه الله تعالى بها .

فكان يضرب رأسه بالمرازب فى هذه المدة كلها ، وكلما أراد أن يهدأ من عذاب هذه البعوضة يضربونه بالمرازب حتى يهدأ وظل على هذا الحال من العذاب حتى أهلكه الله عز وجل بها .

سارة وفرعون مصر

هجر إبراهيم قومه فى الله من أرض بابل ، قاصدا أرض الشام ، وكانت معه امرأته سارة وكانت عاقرا لم تلد ، ومعه ابن أخيه لوط بن هاران بن آزر .

يقول الله تعالى:

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الأنبياء: ٧١] .

ولما قدم إلى بلاد الشام أوحى الله إليه: أنى جاعل هذه الأرض لخلفك من بعدك فبنى إبراهيم مذبحا شكرا لله على هذه النعمة ، وضرب قبته شرقى بيت المقدس ثم ارتحل منطلقا إلى التيمن ، لأن تلك البلاد كان بها جوع وقحط شديد وغلاء ، فارتحلوا إلى مصر .

وقال الإمام أحمد عن أبى هريرة (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ : «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله حين دعى إلى آلهتهم فقال: إنى سقيم ، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله لسارة: إنها أختى**» .

قال: ودخل إبراهيم قرية فيها ملك من الملوك ، وقيل: إنه فرعون مصر وهو: سنان بن علوان بن عوج بن سام بن نوح عليه السلام ، فقيل: دخل إبراهيم الليلة بامرأة من أحسن الناس ، قال: فأرسل إليه الملك أو الجبار ، وقال: من هذه معك ، قال إبراهيم: هى أختى ، قال: فأرسل بها إليه .

وقال إبراهيم: يا سارة لا تكذبى قولى ، فإنى قد أخبرته أنك أختى ، إنه ما على الأرض مؤمن غيرى وغيرك .

فلما دخلت سارة على هذا الجبار فرعون مصر ، قام إليها ، فأقبلت تتوضأ وتصلى وتقول: (اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا

تسلط على الكافر) قال: فغط حتى ركض برجله .

وقال أبو سلمة: عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أنها قالت: (اللهم إن يمت يقل هى قتلته) قال: فأرسل ، فقال فى الثالثة: ما أرسلتم إلىّ إلا شيطانة ، أرجعوها إلى إبراهيم ، وأعطوها (هاجر) ، قال: فرجعت ، فقالت لإبراهيم: أشعرت أن الله رد كيد الكافرين ، وأخدم وليدة .

وكان إبراهيم عليه السلام من وقت ذهابه بها إلى الملك ، قام يصلى لله عز وجل ويسأله أن يدفع عن أهله ، وأن يرد بأس هذا الذى أراد أهله بسوء ، وهكذا فعلت سارة أيضا ، فعصمها الله وصانها لعصمة عبده ورسوله وخليله إبراهيم .

وذكر فى بعض الآثار: أن الله عز وجل كشف الحجاب فيما بين إبراهيم وبين سارة وكان مشاهدا لها وهى عند الملك ، وكيف عصمها الله منه ، ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقر لعينيه ، وأشد لطمأنينته ، فإنه كان يحبها حبا شديدا ، لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر ، فإنه قد قيل: أنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها .

عودة إبراهيم إلى الشام

ثم إن الخليل عليه السلام رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن وهى الأرض المقدسة التى فيها ومعه أنعام وعبيد ومال كثير ، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية .

ثم إن لوطا عليه السلام نزح بماله من الأموال الجزيلة بأمر الخليل له فى ذلك إلى أرض الغور المعروفة واسمها (غورزغر) فنزل بمدينة سدوم وهى مدينة قديمة على شاطئ البحر الميت ، وهى أم تلك البلاد فى ذلك الزمان ، وكان أهلها أشرارا فجارا .

وأوحى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل أن يمد بصره وينظر شمالا وجنوبا وشرقا وغربا وبشره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر .

وقالوا: أن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط ، فأسروه وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه ، فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم فى ثلاثمائة وثمانية عشرة رجلا فاستنقذ لوطا واسترجع أمواله .

وساق فى آثارهم حتى وصل إلى شمالى دمشق وعسكر بظاهرها عند (برزة) وأظن مقام إبراهيم إنما سمى بذلك ؛ لأنه كان موقف جيش الخليل والله أعلم .

ثم رجع إبراهيم مؤيدا منصورا إلى بلاده ، وتلقاه ملوك بيت المقدس معظمين مكرمين خاضعين له ، واستقر ببلاده مع زوجته سارة وخادمتها هاجر المصرية .

قصة إسماعيل عليه السلام

قال أهل الكتاب: إن إبراهيم عليه السلام سأل ربه ذرية طيبة ، وأن الله بشره بذلك ، وأنه لما كان لإبراهيم فى بلاد المقدس عشرون سنة ، قالت سارة لإبراهيم عليه السلام: إن الرب قد حرمنى الولد ، فادخل على أمتى هاجر لعل الله يرزقنى منها ولدا .

فلما وهبتها له دخل بها إبراهيم عليه السلام ، فحين دخل بها حملت منه ، فلما حملت ارتفعت نفسها وتعاظمت على سيدتها ، فغارت منها سارة ، فشكت ذلك إلى إبراهيم ، فقال لها: افعلى بها ما شئت ، فخافت هاجر ، فهربت ونزلت عند عين هناك ، فقال لها ملك من الملائكة: لا تخافى فإن الله جاعل من هذا الغلام الذى حملت خيرا ، وأمرها بالرجوع ، وبشرها أنها ستلد ابنا ، وتسميه إسماعيل ، ويكون وحش الناس ، يده على الكل ، ويد الكل به ويملك جميع أخوته ، فشكرت الله عز وجل على ذلك .

وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فإنه الذى به سادت العرب ، وملكت جميع البلاد غربا وشرقا ، وآتاه الله من العلم النافع والعمل الصالح ، ما لم تؤت أمة من الأمم قبلهم ، وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل ، وبركة رسالته ، يمن سفارته ، وكماله فيما جاء به وعموم بعثته لجميع أهل الأرض .

ولما رجعت هاجر ووضعت إسماعيل عليه السلام ، قالوا: ولدته ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة ، قبل مولد إسحاق بثلاث عشرة سنة .

ولما ولد إسماعيل أوحى الله إلى إبراهيم يبشره بإسحاق من سارة ، فخر لله ساجدا ، وقال له: قد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه وكثرته ونميته حدا كثيرا ، ويولد له اثنى عشر عظيما ، وأجعله رئيسا لشعب عظيم .

وهذه أيضا بشارة بهذه الأمة العظيمة ، وهؤلاء الاثنى عشر عظيما هم الخلفاء الراشدة الاثنى عشر المبشر بهم فى حديث عبد الملك بن عمير عن جابر بن سمرة ، عن النبى ﷺ قال:

«**يكون اثنى عشر أميرا**» ، ثم قال كلمة لم أفهمها ، فسألت أبى ما قال: قال: «**كلهم من قريش**» ، أخرجاه فى الصحيحين .

والمقصود: أن هاجر عليها السلام ، لما ولد لها إسماعيل ، اشتدت غيرة سارة منها ، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها ، فذهب بها وبولدها ، فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم ، ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعا .

فلما تركها هناك وولى ظهره عنهما ، قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه وقالت: يا إبراهيم: أين تذهب وتدعنا هاهنا ، وليس معنا ما يكفينا ، فلم يجبها فلما ألحت عليه وهو لا يجيبها ، قالت له: آلله أمرك بهذا ، قال: نعم ، قالت: فإذا لا يضيعنا .

وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبى زيد رحمه الله فى كتاب النوادر:

أن سارة غضبت على هاجر ، فحلفت لتقطعن ثلاثة أجزاء منها ، فأمرها الخليل: أن تثقب أذنيها ، وأن تخفضها ، فتبر قسمها .

قال السهيلى: فكانت هاجر أول من اختتن من النساء ، وأول من ثقب أذنها ، وأول من طولت ذيلها .

الهجرة إلى جبال فاران (أرض مكة)

قال البخارى: قال عبد الله بن محمد (وهو أبو بكر بن أبى شيبة): حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر ، عن أيوب السختيانى ، وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة ، يزيد أحدهما على الآخر ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: أول من اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا

فيه تمر ، وسقاء فيه ماء .

ثم قفى إبراهيم منطلقا: فتبعته أم إسماعيل ، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولا شىء ، فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له: آلله أمرك بهذا ؟ قال: نعم ، قالت: إذن لا يضيعنا ، ثم رجعت .

فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية ، حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات الواردة فى سورة إبراهيم:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] .

وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى ، أو قال: يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها ، فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادى تنظر ، هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت بطن الوادى ، رفعت طرف درعها ، ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ، ثم أتت المروة ، فقامت عليها ونظرت ، هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ، فعلت ذلك سبع مرات .

قال ابن عباس (رضى الله عنهما) قال النبى ﷺ : «**فلذلك سعى الناس بينهما**» .

فلما أشرفت على المروة ، سمعت صوتا ، فقالت: صه تريد نفسها ، ثم تسمعت فسمعت أيضا ، فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث ، فإذا هى بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه ، أو قال بجناحه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوطه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تعزف من الماء فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف .

قال ابن عباس (رضى الله عنهما) قال النبى ﷺ : «**يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال: لو لم تغرف من الماء ، لكانت زمزم عينا معينا ، قال: فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة ، فإن هاهنا بيتا لله ، يبنيه هذا الغلام وأبوه وأن الله لا يضيع أهله**» .

وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول ، فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا فى أسفل مكة ، فرأوا طائرا عائفا ، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء ، فأرسلوا جريا (رسولا) أو جريين ، فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا ، وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك ، قالت: نعم ، ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا ، قالوا: نعم .

قال ابن عباس (رضى الله عنهما) قال النبى ﷺ : «**فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الإنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام إسماعيل ، وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم**» .

زيارة الخليل لولده

وماتت هاجر أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل ، يطالع تركته فلم يجد إسماعيل ، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغى لنا ، ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت: نحن بشر ، نحن فى ضيق وشدة ، وشكت إليه ، قال: فإذا جاء زوجك فأقرئى عليه السلام وقولى له: يغير عتبة بابه .

فلما جاء إسماعيل ، كأنه آنس شيئا ، فقال: هل جاءكم من أحد ، فقالت: نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألنى كيف عيشنا ، فأخبرته أنا فى جهد وشدة ، قال: فهل أوصاك بشىء ، قالت: نعم ، أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول لك: غير عتبة بابك ، قال: ذاك أبى ، وقد أمرنى أن أفارقك ، فالحقى بأهلك ، وطلقها وتزوج منهم بأخرى .

الزيارة الثانية:

ولبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم أتاهم بعد ، فلم يجده ، فدخل على امرأته ، فسألها عنه ، فقالت: خرج يبتغى لنا ، قال: كيف أنتم ، وسألها عن عيشهم وهيئتهم ، فقالت: نحن

بخير وسعة ، وأثنت على الله عز وجل فقال: ما طعامكم ، قالت: اللحم ، قال: فما شرابكم ، قالت: الماء ، قال: اللهم بارك لهم فى اللحم والماء .

قال النبى ﷺ : «**ولم يكن يومئذ حب ، ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه**» .

قال: فهما يخلوا عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه ، قال: إذا جاء زوجك فأقرئى عليه السلام ، ومريه يثبت عتبة بيته .

فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد ، قالت: نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير ، قال: فأوصاك بشىء ، قالت: نعم ، هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك ، قال: ذاك أبى وأنت العتبة ، أمرنى أن أمسكك .

الزيارة الثالثة:

ثم لبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه ، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد ، والولد بالوالد ، ثم قال: يا إسماعيل ، إن الله أمرنى بأمر ، قال: فاصنع ما أمرك به ربك ، قال: وتعيننى ، قال: وأعينك ، قال: فإن الله أمرنى أن أبنى هاهنا بيتا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها .

فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة وإبراهيم يبنى ، حتى إذا ارتفع البناء ، جاء بهذا الحجر فوضعه له ، فقام عليه وهو يبنى وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان:

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧] .

الختـــان

وعند أهل التوراة: أن إبراهيم أمره الله بأن يختن ولده إسماعيل وكل من عنده من العبيد وغيرهم فختنهم ، وذلك بعد مضى تسع وتسعين سنة من عمره فيكون عمر إسماعيل

ثلاث عشرة سنة ، وهذا امتثال لأمر الله عز وجل ، وأن إبراهيم فعله على وجه الوجوب ، وأنه واجب على الرجال .

ويروى البخارى عن أبى هريرة (رضى الله عنه) أن النبى ﷺ قال: «**اختتن إبراهيم النبى عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم**» .

وعنه أيضا : «**اختتن إبراهيم ابن مائة وعشرين سنة ، وعاش بعد ذلك ثمانين سنة**» .

قصة الذبيح

يقول الله تعالى فى سورة الصافات:

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الصافات: ٩٩ - ١١١] .

لما هاجر إبراهيم من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولدا صالحا ، فبشره بغلام حليم وهو إسماعيل عليه السلام ؛ لأنه أول ما ولد له على رأس ٨٦ سنة من عمر الخليل ، فلما شب وارتحل رأى إبراهيم عليه السلام فى المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا .

وفى الحديث عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: «**رؤيا الأنبياء وحى**» .

فقال إبراهيم لولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسرا ويذبحه قهرا ، قال الخليل عليه السلام: يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى ، فبادر الغلام قائلا: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما أى إبراهيم لأمر ربه وإسماعيل طاعة لأبيه وربه ، سمى إبراهيم وكبر ، وتشهد الولد للموت ، وأضجعه أبوه كما تضجع الذبائح ، وبقى جبينه لاصقا للأرض ، وأمر السكين على حلقه ، فلم تقطع شيئا .

عندئذ: نودى من الله عز وجل: أن يا إبراهيم ، قد صدقت الرؤيا ، أى قد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ، وبذلت ولدك للقربان ، كما سمحت ببدنك للنيران ، إن هذا لهو البلاء المبين .

﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [الصافات: ١٠٧] ، أى كبش أبيض أعين أقرن ، رآه مربوطا بسمرة فى ثبير ، وقال ابن عباس (رضى الله عنهما): كبش قد رعى فى الجنة أربعون خريفا وكان عليه صوف أحمر ، وهو الكبش الذى قربه هابيل بن آدم فتقبل منه .

وقال الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة ، قالت: أخبرتنى امرأة من بنى سليم ولدت عامة أهل دارنا ، قالت: أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة ، وقالت مرة: أنها سألت عثمان: لم دعاك رسول الله ﷺ ، قال: قال لى رسول الله ﷺ : «**إنى كنت رأيت قرنى الكبش حين دخلت البيت ، فنسيت أن آمرك تخمرها (تسترها بستار) فخمرها فإنه لا ينبغى أن يكون فى البيت شىء يشغل المصلى**» .

وقال سفيان: لم يزل قرنا الكبش معلقتين فى البيت حتى احترق البيت فاحترقا .

مولد إسحاق عليه السلام

يقول الله تعالى فى سورة الصافات:

﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ ﴾ [الصافات: ١١٢ - ١١٣] .

وكانت البشارة من الملائكة لإبراهيم وسارة لما مروا بهما ذاهبين إلى مدائن قوم لوط ليدمروا عليهم لكفرهم وفجورهم .

ويقول الله تعالى فى سورة هود:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى

شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود: ٦٩ - ٧٣] .

يذكر الله تعالى أن الملائكة ، وكانوا ثلاثة هم: جبريل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، كما وردوا على الخليل حسبهم أولا أضيافا ، فقام وشوى لهم عجلا سمينا من خيار بقره ، فلم تمتد أيديهم إليه ، وأوجس منهم خيفة ، قالوا: لا تخف إنا رسل ربك إلى قوم لوط .

فاستبشرت عند ذلك سارة غضبا لله عليهم ، وكانت قائمة على رؤوس الأضياف كما جرت به عادة الناس من العرب وغيرهم ، فبشروها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب فصكت وجهها عند التعجب ، وقالت: ﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾ ﴾ [هود: ٧٢ - ٧٣] .

وعند أهل الكتاب: أن الله تعالى قال لإبراهيم: أما سارا امرأتك ، فلا يدعى اسمها سارا ولكن اسمها سارة ، وأبارك عليها ، وأعطيك منها ابنا وأباركه ويكون الشعوب وملوك الشعوب منه ، فخر إبراهيم ساجدا لله ، وضحك قائلا فى نفسه: أبعد مائة سنة يولد لى غلام ، أو سارة تلد وقد أتت عليها تسعون سنة .

وقال إبراهيم لله تعالى: ليت إسماعيل يعيش قدامك ، فقال الله لإبراهيم: بحق أن امرأتك سارة تلد لك غلاما ، وتدعو اسمه إسحاق إلى مثل هذا الحين من قابل وأوثقه ميثاقى إلى الدهر ، ولخلفه من بعده .

وقد استجبت لك فى إسماعيل وباركت عليه ، وكثرته ونميته جدا كثيرا ، ويولد له اثنى عشر عظيما ، وأجعله رئيسا لشعب عظيم ، والله أعلم .

وعندهم أن يعقوب وهو إسرائيل هو الذى أسس المسجد الأقصى ، بناه بعد أربعين سنة من بناء إبراهيم وإسماعيل المسجد الحرام بمكة .

بناء البيت العتيق

يقول الله تعالى فى سورة آل عمران:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٩٦ ، ٩٧] .

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الحج:

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الحج: ٢٦ - ٢٧] .

وقال أيضا فى سورة البقرة:

﴿ ۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٢٩] .

يذكر الله تعالى عن عبده ورسوله وصفيه وخليله إمام الحنفاء ووالد الأنبياء إبراهيم عليه السلام ، أنه بنى البيت العتيق الذى هو أول مسجد وضع لعموم الناس يعبدون الله فيه ، وبوأه الله مكانه (أرشده إليه ودل عليه) .

ولقد روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب (رضى الله عنه) أنه أرشد إليه بوحى من الله عز وجل ، وقد ذكرنا فى صفة خلق السماوات ، أن الكعبة بحيال البيت المعمور بحيث لو سقط لسقط عليها ، وكذلك معابد السماوات السبع ، كما قال بعض السلف: إن فى كل سماء بيتا يعبد الله فيه أهل كل سماء ، وهو فيها كالكعبة فى الأرض .

ولقد ثبت فى الصحيحين: أن النبى ﷺ قال: «**إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق الله السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة**» .

والمقصود: أن الخليل بنى أشرف المساجد فى أشرف البقاع ، فى واد غير ذى زرع ودعا لأهلها بالبركة ، وأن يرزقوا من الثمرات مع قلة المياه وعدم الأشجار والزروع والثمار ، وأن يجعله حرما محرما وآمنا .

فاستجاب الله لـه مسألته ، ولبى دعوته ، وسأل الله أن يبعث فيهم رسولا منهم ، من جنسهم ، وعلى لغتهم الفصيحة ، فاستجاب الله دعوته ببعثة محمد ﷺ ، وعمت دعوته جميع بقاع الأرض فى سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة .

البنـــاء:

قال ابن أبى حاتم ، عن سعيد بن المسيب ، عن كعب الأحبار ، قال: (كان البيت غثاءة على الماء ، قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عاما ومنه دحيت الأرض) .

وحدثنا على بن أبى طالب: أن إبراهيم أقبل من أرض أرمينية ومعه السكينة ، تدل على تبوؤ البيت ، كما تتبوأ العنكبوت بيتا ، فكشفت عن أحجار ، لا يطبق الحجر إلا ثلاثون رجلا ، فقلت: يا أبا محمد ، فإن الله يقول: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] قال كان ذلك بعد .

وقال عبد الرزاق ، عن عطاء بن أبى رباح ، قال: (إن الله تعالى لما أهبط آدم من الجنة ، كانت رجلاه فى الأرض ، ورأسه فى السماء يسمع كلام أهل السماء ، ودعاؤهم يأنس إليهم ، فهابت الملائكة ، حتى اشتكت إلى الله فى دعائها وفى صلاتها ، فخفضه الله تعالى إلى الأرض) .

فلقد فقد ما كان يسمع منهم ، استحوش حتى شكا ذلك إلى الله فى دعائه وفى صلاته ، فوجه إلى مكة ، فكان موضع قدميه قرية ، وخطوه مفازة ، حتى انتهى إلى مكة ، وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة ، فكانت على موضع البيت الآن ، فلم يزل يطوف به ، حتى أنزل الله الطوفان ، فرفعت تلك الياقوتة ، حتى بعث الله إبراهيم عليه السلام فبناه) .

وقال السدى: إن الله عز وجل أمر إبراهيم أن يبنى البيت هو وإسماعيل: ابنيا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ، فانطلق إبراهيم حتى أتى مكة ، فقام هو وإسماعيل وأخذا المعاول لا يدريان أين البيت ، فبعث الله ريحا يقال لها: الريح الخجوج ، لها جناحان ورأس فى صورة حية ، فكشفت لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول ، واتبعاها بالمعاول ، يحفران حتى وضعا الأساس ، فلما بنيا القواعد ، فبلغا مكان الركن ، قال إبراهيم لإسماعيل: يا بنى اطلب لى حجرا حسنا ، أضعه ها هنا ، قال: يا أبت إنى كسلان لغب ، فانطلق لـه حجرا وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند ، وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة ، وكان آدم هبط به من الجنة ، فاسود من خطايا الناس ، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن ، فقال: يا أبت من جاءك بهذا ، قال: جاء به من هو أنشط منك فبنياه وهما يدعوان: ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٧] .

بناء قريش للكعبة بعد إبراهيم

قال محمد بن إسحاق فى السيرة: (ولما بلغ رسول الله ﷺ خمس وثلاثون سنة اجتمعت قريش لبناء الكعبة ، وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها ، وإنما كانت رضا فوق القامة ، فأرادوا رفعها وتسقيفها ، وذلك أن نفرا سرق كنز الكعبة وكان فى بئر فى جوف الكعبة ، وكان الذى عنده الكنز (دويك) مولى بنى مليح بن عمرو من خزاعة ، فقطعت قريش يده - ويزعم الناس: أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك .

وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة ، لرجل من تجار الروم ، فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها ، وكان بمكة رجل قبطى نجار ، فهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها ، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التى كانت تطرح فيها ما يهدى لها كل يوم ، فتشرف الحية على جدار الكعبة وكانت مما يهابون .

وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا حزألت وكشت ، وفتحت فاها فكانوا يهابونها فبينما هى يوما تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع ، بعث الله إليها طائرا فاختطفها فذهب بها ، فقالت قريش: إنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا ، عندنا عامل رفيق ،

وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية .

فلما أجمعوا أمرهم فى هدمها وبنيانها قام ابن وهب بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم فتناول من الكعبة حجرا ، فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه .

فقال: يا معشر قريش: لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم إلا طيبا ، لا يدخل فيها مهر بغى ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس .

قال ابن إسحاق: والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة .

ثم إن قريشا تجزأت الكعبة ، فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم ، وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم .

وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى ، ولبنى أسد ، ولبنى عدى بن كعب ، وهو الحطيم .

ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم فى هدمها ، فأخذ المعول ، ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم ترع ، اللهم إنا نريد إلا الخير ، ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس تلك الليلة وقالوا: ننظر ، فإن أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت ، وإن لم يصبه شىء فقد رضى الله ما صنعنا .

فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله ، فهدم وهدم الناس معه ، حتى إذا انتهى بهم إلى الأساس ، أساس إبراهيم عليه السلام ، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها بعضا ، وقالوا: إن رجلا من قريش ممن كان يهدمها ، أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أيضا أحدهما ، فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها ، فانتهوا عن ذلك الأساس .

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ،

ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن (يعنى الحجر الأسود) فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوروا وتخالفوا ، وأعدوا للقتال .

فقربت للقتال ، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ، ثم تعاهدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا: لعقة الدم .

فمكثت قريش على ذلك أربع أو خمس ليال ، ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد ، فتشاوروا وتناصفوا ، فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن مخزوم ، وكان عامئذ أمين قريش كلهم قال: محمد الأمين حكم بينهم ﷺ .

قال أبو أمية بن المغيرة: يا معشر قريش: اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضى بينكم فيه ، ففعلوا ، فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر ، قال ﷺ : هلم إلىّ ثوب ، فأتى به ، فأخذ الركن (يعنى الحجر الأسود) فوضعه فيه بيده ، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه بيده ﷺ ، ثم بنى عليه وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى (الأمين) وأتمت قريش بناء الكعبة ، ذكره ابن كثير فى تفسيره ص ١٥٩ جـ ١ .

ثناء الله ورسوله على إبراهيم

لما وفى إبراهيم أوامر الله من التكاليف العظيمة ، جعله الله للناس إماما ، يقتدون به ويأتمون بهديه ، وسأل إبراهيم ربه: أن تكون هذه الإمامة متصلة بسببه وباقية فى نسبه ، وخالدة فى عقبه ، فأجيب له ، واستثنى الله من نيلها الظالمون وبذلك يقول الله تعالى فى سورة الأنعام:

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٣ - ٨٨] .

فكل كتاب أنزل الله من السماء على نبى من الأنبياء بعد إبراهيم الخليل فمن ذريته وشيعته وذلك أنه ولد له لصلبه ولدان ذكران عظيمان: إسماعيل من هاجر ثم إسحاق من سارة .

أما إسحاق: فولد له يعقوب (وهو إسرائيل) الذى ينتسب إليه سائر أسباطهم فكانت فيهم النبوة ، وكثروا جدا ، بحيث لا يعلم عددهم إلا الذى بعثهم حتى ختموا بعيسى ابن مريم .

أما إسماعيل عليه السلام فكانت منه العرب على اختلاف قبائلها ، ولم يوجد من سلالته سوى خاتمهم على الإطلاق ، وسيدهم ، وفخر بنى آدم فى الدنيا محمد ﷺ .

إحياء الله للموتى

يقول الله تعالى فى سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٠] .

لما حدثت المناظرة بين إبراهيم والنمرود الذى ادعى أنه يحيى ويميت ، أراد الخليل أن يترقى من علم اليقين إلى عين اليقين ، وأن يرى ذلك مشاهدة ، فقال رب: أرنى كيف تحيى الموتى ليطمئن قلبى ، فأجابه الله أن يأخذ أربعة من الطيور ، قالوا: حمامة وديك وطاووس وغراب .

وقال ابن عباس (رضى الله عنهما) فى قول الله تعالى: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠] أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل منهن جزءا، فذكروا: أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن، وخلط بعضهن ببعض، ثم جزأهن أجزاءً وجعل على كل جبل منهم جزءا (قيل: أربعة جبال).

وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن، فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتينه يمشين سعيا، ليكون أبلغ له فى الرؤية التى سألها.

وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذى فى يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته.

ولهذا قال الله: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، أى عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع من شيء، فرضى إبراهيم بما شاهده، وزاد يقينه.

وادعت اليهود والنصارى أن إبراهيم كان منهم، فرد الله عليهم بقوله فى سورة آل عمران: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧].

* * *

خليل الرحمن

يقول الله تعالى فى سورة النساء:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾

[النساء: ١٢٤ - ١٢٦] .

ويروى ابن أبى حاتم: أن عبيد بن عمير قال: (كان إبراهيم عليه السلام يضيف الناس فخرج يوما يلتمس إنسانا يضيفه ، فلم يجد أحدا يضيفه ، فرجع إلى داره ، فوجد فيها رجلا قائما ، فقال: يا عبد الله ما أدخلك دارى بغير إذنى ؟ قال: دخلتها بإذن ربها ، قال: ومن أنت ؟ قال: أنا ملك الموت ، أرسلنى ربى إلى عبد من عباده ، أبشره بأن الله قد اتخذه خليلا ، قال: ومن هو ؟ فوالله إن أخبرتنى به ، ثم كان بأقصى البلاد لآتينه ، ثم لا أبرح له جارا ، حتى يفرق بيننا الموت ، قال: ذلك العبد أنت ، قال: أنا ؟ قال: نعم ، قال: فبم اتخذنى ربى خليلا ؟ قال: بأنك تعطى الناس ولا تسألهم .

وقال ابن أبى حاتم ، عن إسحاق بن يسار ، قال: (لما اتخذ الله إبراهيم خليلا ألقى فى قلبه الوجل ، حتى أن كان خفقان قلبه ليسمع من بعد ، كما يسمع خفقان الطير فى الهواء) .

وثبت فى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ لما خطبهم فى آخر خطبة خطبها قال: «**أما بعد ، أيها الناس فلو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر بن أبي قحافة خليلا ولكن صاحبكم خليل الله**» .

وقال أيضا عليه الصلاة والسلام : «**أيها الناس ، إن الله اتخذنى خليلا**» .

وقد أثنى الله على إبراهيم عليه السلام فى القرآن الكريم وذكره فى خمس وثلاثين موضعا ، منها خمس عشرة فى سورة البقرة وحدها ، وهو أحد أولى العزم الخمسة المنصوص

على أسمائهم تخصيصا من بين سائر الأنبياء فى سورة الأحزاب:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧] .

وثبت فى الصحيحين عن كعب بن عجرة قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام عليك قد عرفناه، فكيف الصلاة عليك ؟ قال: قولوا : «**اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**» .

وقال ابن عباس (رضى الله عنهما) فى قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤] قال: ابتلاه الله بالطهارة: خمس فى الرأس: قص الشارب، والمضمضة، والسواك، والاستنشاق، وفرق الشعر، وخمس فى الجسد: تقليم الأظافر، وحلق العانة، والختان، ونتف الإبط، وغسل أثر الغائط، والبول بالماء .

وعن عائشة (رضى الله عنها) قال النبى ﷺ : «**عشر من الفطرة: قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص الأظافر ، والختان ، وغسل البراجم – مفاصل الأصابع – ونتف الإبط ، وحلق العانة ، وانتقاص الماء (الاستنجاء)**» .

مولد إبراهيم ووفاته

ذكر ابن جرير: أن مولد إبراهيم كان فى زمن النمرود بن كنعان وهو الضحاك الملك المشهور الذى يقال أنه ملك ألف سنة وكان فى غاية الغشم والظلم .

وذكر المؤرخون: أنه طلع نجم أخفى ضوء الشمس والقمر، فهال ذلك أهل ذلك الزمان، وفزع النمرود، فجمع الكهنة والمنجمين وسألهم عن ذلك فقالوا: يولد مولود فى رعيتك يكون زوال ملكك على يده، فأمر عند ذلك بمنع الرجال عن النساء، وأن يقتل المولودون من ذلك الحين .

فكان مولد إبراهيم الخليل فى ذلك الحين، فحماه الله عز وجل وصانه من كيد الفجار .

وكان مولده بالسوس، وقيل: ببابل، وقيل: بالسواد مكان بالعراق، وهاجر بزوجته سارة وماتت سارة قبله بقرية حبرون في أرض كنعان، وكان عمرها مائة وسبعة وعشرون عاماً، فحزن عليها إبراهيم ورثاها رحمها الله، واشترى من رجل من بني (حيث) يقال له: عقرون بن صخر، اشترى منه إبراهيم مغارة بأربعمائة مثقال، ودفن فيها سارة هناك.

صفة إبراهيم

روى يزيد بن هارون عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن في الجنة قصرا - أحسبه قال: من لؤلؤة ليس فيه فصم ولا وهي، أعده الله لخليله إبراهيم عليه السلام نزلا**».

وقال الإمام أحمد، عن جابر، عن رسول الله ﷺ قال: «**عرض عليّ الأنبياء فإذا موسى ضرب من الرجال، كأنه من رجال شنوءة، ورأيت عيسى ابن مريم فإذا أقرب من رأيت به شبها عروة بن مسعود، ورأيت إبراهيم فإذا أقرب من رأيت به شبها دحية**».

وعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت عيسى ابن مريم وموسى وإبراهيم، فأما عيسى فأحمر جعد عريض الصدر، وأما موسى فآدم جسيم**»، قالوا له: فإبراهيم، قال: «**انظروا إلى صاحبكم**».

وعن أبي هريرة قال: (كان إبراهيم أول من تسرول، وأول من فرق، وأول من استحد، وأول من اختتن بالقدوم وهو ابن مائة وعشرون سنة، وعاش بعدها ثمانين سنة، وأول من قرى الضيف وأول من شاب).

قبر إبراهيم

مرض إبراهيم عليه السلام، ومات عن عمر مائة وخمسون وسبعون سنة، وذكر أن عمره مائتي سنة لحديث أبي هريرة (رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «**اختتن إبراهيم بالقدوم وهو ابن مائة وعشرون سنة وعاش بعد ذلك ثمانين سنة**».

وقال أهل الكتاب: (إن إبراهيم لما مات دفن بالمغارة المذكورة التي كانت

لحبرون الحيثي عند امرأته سارة ، وتولى دفنه إسماعيل وإسحاق صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقيل: إن قبره ، وقبر ولده إسحاق ، وقبر ولده يعقوب في (المربعة) التي بناها سليمان ابن داود عليهما السلام ببلدة جبرون وهو البلد المعروف بالخليل اليوم ، وهذا متلقى بالتواتر ، أمة بعد أمة ، وجيلا بعد جيل من زمن بني إسرائيل وإلى زماننا هذا ، وأن قبره بالمربعة تحقيقا .

أولاد إبراهيم الخليل من زوجاته الأربع:

من هاجر المصرية: إسماعيل .

من سارة: إسحاق .

من قنطور بنت يقطن الكنعانية:

١ - زمران . ٢ - مدين . ٣ - يقشان .

٤ - مادان . ٥ - شوح . ٦ - شياق .

من أحجون بنت أمين:

١ - كيسان . ٢ - سورج . ٣ - أميم .

٤ - لوطان . ٥ - نافس .

* * *

obeikandi.com

الفصل الرابع
عذاب قوم لوط عليه السلام

يقول الله تعالى فى سورة النمل:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [النمل: ٥٤ - ٥٨] .

لوط نبى الله: هو لوط بن هاران بن تارخ (آزر) ، وكان لوط قد نزح عن محلة عمه إبراهيم عليهما السلام بأمره ، فنزل فى مدينة (سدوم) من أرض غور زغر ، وكانت هذه المدينة أم تلك المحلة ، ولها قرى مضافة إليها ، ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم ، وأسوأهم طوية ، وأردأهم سريرة وسيرة .

أعمالهم السيئة

كانوا يقطعون الطريق ويخونون الرفيق ، ويأتون فى ناديهم (وهو محل حديثهم وسمرهم) المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه ، حتى قيل: أنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم ، ولا يستحون من مجالسيهم ، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة فى المحافل ، كالكلاب والوحوش ولا يستنكفون .

ومن أعمالهم: تصفيف الشعر ، وحل الإزار ، والصفير بالأصابع والتبرز فى الطرقات ، وفرقعة الأكعب ، ودخول الحمام بدون مئزر ، واللعب بالحمام ، والخمر ، وابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم وهى إتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله لهم من النساء الطاهرات اللاتى أحلهن الله لهم ، وتلك سنة الله فى خلقه للتناسل وعمار الدنيا .

وابتدعوا المهارشة بين الكلاب ، والمناطحة بين الكباش ، والمناقرة بالديوك ، واللعب بالنرد (الطاولة) ، فدعاهم لوط إلى عبادة الله وحده ، وترك هذه العادة الفاحشة ، فلم

يستجيبوا له ولم يؤمنوا به، حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما نهوا عنه، ولم يستجيبوا لوعظ ولم يسمعوا نصيحة.

رسل الله إليهم

فعندئذ دعا عليهم نبيهم لوط، فسأل رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم الفاسقين، فأرسل الله إلى سيدنا إبراهيم ثلاثة من الملائكة هم: جبريل وميكائيل وإسرافيل، على هيئة ضيوف، فقدم إليهم إبراهيم عجلا سمينا مشويا، فلم يمدوا أيديهم إليه، فخاف منهم، فقالوا له: إنا نبشرك بإسحاق نبيا من المرسلين، ولقد أرسنا الله إلى قوم لوط.

فأقبلوا حتى أتوا أرض سدوم في صورة شبان حسان، اختبارا من الله لقوم لوط، وإقامة الحجة عليهم، فاستضافوا لوطا عليه السلام، فخشي إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره وحسبهم بشرا من الناس، وقال: هذا يوم عصيب، لأن قومه كانوا قد اشترطوا عليه ألاَّ يضيف أحدا، وهاهم نزلوا به، وطلبوا منه الضيافة، ولا محيد إلا أن يضيفهم ليدفع ما قد يحدث لهم إن تركهم عند غيره.

وذكر قتادة أن الملائكة الثلاثة وردوا على لوط، وهو في أرض له يعمل فيها، فتضيفوا فاستحيا منهم وانطلق أمامهم، وجعل يعرض عليهم في الكلام، لعلهم ينصرفون عن هذه القرية، وينزلون في غيرها.

فقال لهم فيما قال: والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلا، ثم أعاد ذلك عليهم، حتى كرره أربع مرات، وكانوا قد أمروا ألاَّ يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك.

وقال السدي: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط، فأتوها نصف النهار، فلما بلغوا نهر سدوم، لقوا ابنة لوط تستقي من الماء لأهلها، وكانت للوط ابنتان، اسم الكبرى (ريثا) والصغرى اسمها (زغرتا) فقالوا لها: يا جارية: هل من منزل، فقالت لهم: نعم، مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، شفقة عليهم من قومها.

فأتت أباها فقالت: يا أبتاه، أدرك فتيانا على باب المدينة، ما رأيت وجوه قوم قط هى أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، وكان قومه نهوه أن يضيف رجلا، فقالوا: خل عنا، فلنضيف الرجال.

فجاء بهم، فلم يعلم أحداً، إلا أهل البيت، فخرجت امرأته واسمها والهة فأخبرت قومها، فقالت: إن فى بيت لوط رجالا، ما رأيت مثل وجوههم قط، فجاء قومه يهرعون إليه، فقال كما جاء فى سورة هود:

﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ [هود: ٧٨].

يرشدهم إلى غشيان نسائهم، وهن بناته شرعا، لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد، وخاطبهم ألاَّ يخزوه فى ضيوفه، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل فيه خير، بل الجميع سفهاء أغبياء، وكانت هذه الشهادة من لوط، من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوه منه.

فردوا عليه:

﴿ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ۖ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [هود: ٧٩ - ٨٠].

ولوط: لو أن له بهم قوة أو له منعة وعشيرة ينصرونه عليهم، ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب.

ويرى أبو هريرة (رضى الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: «**رحمة الله على لوط أن كان يأوى إلى ركن شديد - يعنى الله عز وجل - فما بعث الله بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه**».

وذكر المفسرون: أن نبى الله لوطا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم، والباب مغلق، وهم يريدون فتحه وولوجه، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب.

قالت الملائكة: ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ﴾ [هود: ٨١].

وذكروا: أن جبريل عليه السلام خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة بطرق جناحه فطمست أعينهم، حتى قيل: أنها غارت بالكلية، ولم يبق لها محل، ولا عين ولا أثر، فرجعوا يتحسسون مع الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن ويقولون: إذا كان الغد، كان لنا وله شأن، ويقول الله تعالى في سورة هود:

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٨١ - ٨٣].

العذاب:

أمرت الملائكة لوطا أن يخرج بأهله وهم: ابنتاه ريثا وزغرتا، لم يتبعه رجل واحد وقالوا: أن امرأته خرجت معه (والله أعلم) فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس جاءهم من أمر الله ما لا يرد، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد.

قال مجاهد: أخذ جبريل قوم لوط ودورهم بطرف جناحه من قرارهن وكن سبع مدن بمن فيهن من الأمم، قيل أنهم كانوا أربعمائة نسمة، وقيل أربع آلاف نسمة وما معهم من الحيوانات، حملهم بمواشيهم وأمتعتهم ورفعهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم كفأهم، فجعل عاليها سافلها، ولما قلبها كان أول ما سقط منها شرفاتها.

وقال القرظي: كانت قرى قوم لوط خمس قرى: سدوم، وصعبة، وصعود، وغمرة، ودوحاء احتملها جبريل بجناحه، ثم صعد بها حتى أن أهل السماء الدنيا ليسمعون نابحة كلابها وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة.

وقال السدى: لما أصبح قوم لوط، نزل جبريل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ بها السماء، حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وأصوات ديوكهم، ثم

قلبها فقتلهم ، فذلك قول الله تعالى:

﴿ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم: ٥٣] ومن لم يمت حتى سقط للأرض ، أمطر الله عليه وهو تحت الأرض الحجارة ، ومن كان منهم شاذا فى الأرض يتبعهم فى القرى ، فكان الرجل يتحدث فيأتيه الحجر فيقتله ، مصداق قول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود: ٨٢ - ٨٣] .

وغشاها الله بمطر من حجارة من سجيل متتابعة ، مسومة ، مرقومة ، على كل حجر اسم صاحبه الذى سقط عليه من الحاضرين منهم فى بلدهم والغائبين عنها من المسافرين والنازحين والشاذين منها .

حكم الإسلام فى اللواط

لما كان اللواط أكثر إثما وأقبح ، وكانت مفسدته من أعظم المفاسد ، كانت عقوبته فى الدنيا والآخرة من أعظم العقوبات ، وهو أعظم عند الله من الزنا بالنساء .

قال ابن القيم رحمه الله:

(لم ينل الله سبحانه وتعالى بهذه الكبيرة قبل قوم لوط أحدا من العالمين ، وعاقبهم عقوبة لم يعاقبها أحدا غيرهم ، وجمع عليهم من أنواع العقوبات من الإهلاك وقلب ديارهم عليهم ، والخسف بهم ، ورجمهم بالحجارة من السماء ، فنكل بهم نكالا لم ينكله بأمة سواهم .

وذلك لعظم مفسدة هذه الجريمة التى تكاد الأرض أن تميد من جوانبها إذا عملت عليها ، وتصعق الملائكة إلى أقطار السماوات والأرض إذا شاهدوها خشية نزول العذاب على أهلها فيصيبهم معهم ، وتضرع الأرض إلى ربها تبارك وتعالى وتكاد الجبال تزول عن مكانها .

عن أبى عبد الله بن الحاج (رحمه الله) قال: وعقوبة اللائط عندنا حذر كالزانى

مائة جلدة إن كان غير محصن، والرجم إن كان محصنا، وقيل عقوبة اللائط أن يلقى من شاهق، وترمى عليه الحجارة كما عذب الله قوم لوط، وهذا قول ابن عباس (رضى الله عنهما).

والذى نص على رجم اللائط من الأئمة: الشافعى، وأحمد، وطائفة قالوا: بأن اللائط يرجم سواء كان محصنا أو لا، واحتجوا بالحديث الذى رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه عن رسول الله ﷺ قال: «**من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط، فاقتلوا الفاعل والمفعول به**»، (حديث حسن).

وذهب أبو حنيفة: إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل الله بقوم لوط، ولقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

روى أحمد والترمذى والحاكم وقال: صحيح عن جابر (رضى الله عنه) قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف على أمتى عمل قوم لوط**».

وروى أحمد فى المسند عن ابن عباس (رضى الله عنهما) قال: قال رسول الله ﷺ: «**ملعون من سب أباه، ملعون من سب أمه، ملعون من ذبح لغير الله، ملعون من غيّر تخوم الأرض، ملعون من كمه أعمى عن طريق، ملعون من وقع على بهيمة، ملعون من عمل بعمل قوم لوط**».

وقال مجاهد (رضى الله عنه): (لو أن الذى عمل عمل قوم لوط اغتسل بكل قطرة من الأرض وبكل قطرة من السماء لم يزل نجسا).

وروى فى الكبائر: (أنه إذا ركب الذكر الذكر، اهتز عرش الرحمن خوفا من غضب الله تعالى، وتكاد السماوات أن تقع على الأرض فتمسك الملائكة بأطرافها وتقرأ السورة إلى آخرها.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

حتى يسكن غضب الله عز وجل

وروى ابن ماجه وأبو نعيم فى الحلية ، ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبى ، وقال الألبانى: حديث حسن صحيح عن ابن عمر قال: أقبل رسول الله ﷺ فقال: **«يا معشر المهاجرين ، خمس إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركهن؛ لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكت مضت فى أسلافهم الذين مضوا ، ولم ينقصوا المكيال والميزان ، إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم فأخذوا بعض ما فى أيديهم ، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم»** .

واحذروا من... :

١ - المكامعة:

روى أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، والدارمى ، والبغوى فى شرح السنة ، عن أبى ريحانة (رضى الله عنه) قال: (نهى رسول الله ﷺ عن مكامعة الرجل الرجل بغير شعار ومكامعة المرأة المرأة بغير شعار) ويقال لزوج المرأة: هو كميعها أى: ضجيعها .

ولا يجوز للمرأتين أن يتجردا تحت ثوب واحد ، حتى وإن كانت إحداهن متجردة من ثيابها بجوار الأخرى على فراش واحد ، بحيث لا تكون مهيأة لجريمة السحاق الذى يحدث بتلذذ المرأة مع المرأة ، وربما يلعب الشيطان دوره خاصة مع النساء العوانس بينهن ، أو فى الأماكن التى يتجمع فيها البنات كالمعسكرات وبيوت الطالبات وسجون الحريم وبعض مستشفيات النساء ، نسأل الله العفة لبناتنا ونسائنا .

ولقد ثبت فى صحيح مسلم ، ورواه أحمد ، والترمذى والبيهقى عن رسول الله ﷺ قال: **«لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا تنظر المرأة على عورة المرأة ولا يفضى الرجل إلى**

الرجل فى الثوب الواحد ، ولا المرأة إلى المرأة فى الثوب الواحد» .

٢ – المكاعمة:

المكاعمة: هى تقبيل الفم لفم الغير ، أخذ من كعام البعير وهو أنه يشد فمه إذا هاج حتى لا يعض ، بغير شعار: أى بلا حاجب من ثوب وخلافه .

ولقد نهى الإسلام الرجال أن يقبل أحدهما الآخر فى فمه ، ونهى النساء أن تقبل إحداهن الأخرى فى فمها ، وكثيرا ما يحدث هذا وذاك فى عصرنا ، نسأل الله السلامة .

٣ – النظر إلى الغلام الأمرد:

فلقد ورد فى كتاب الكبائر: أن سعيد بن المسيب رحمه الله قال: (إذا رأيتم الرجل يلح فى النظر إلى الغلام الأمرد ، فاتهموه) أى اتهموه باللواط .

ودخل سفيان الثورى الحمام ، فدخل عليه صبى حسن الوجه ، فقال: أخرجوه عنى فإنى أرى مع كل امرأة شيطانا ، وأرى مع كل صبى حسن بضعة عشر شيطانا .

امرأة لوط

امرأة لوط يقال لها: واهلة ، ولقد ذكرها الله تعالى فى القرآن الكريم فى سورة العنكبوت:

﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٢] .

وقال سبحانه فى سورة هود:

﴿ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾ [هود: ٨١] .

وواهلة مكثت مع قومها ، وكانت عين خبيثة تدل قوم لوط على الشبان ضيوف لوط وتصف الشبان (وهم من الملائكة) بأن وجوههم حسنة لم تر العين أحسن منهم ، ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبنتيها ، ولكنها لما سمعت الصيحة

وسقوط البلدة، التفتت إلى قومها، وخالفت أمر ربها قديما وحديثا، وقالت: واقوماه، فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها، إذ كانت على دينهم وعينا لهم على ضيوف لوط، وهذا جزاء الظالمين.

بحيرة منتنة

وجعل الله مكان تلك البلدة بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها، لرداءتها ودناءتها، فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته فى انتقامه ممن خالف أمره وكذب رسله، واتبع هواه وعصى مولاه، ودليلا على رحمته بعباده المؤمنين فى إنجائه إياهم من المهلكات، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٦٧ - ٦٨].

* * *

obeikandl.com